رواية

أديلينا

تأليف /

فاطمة الزهراء بدوي

جميع حقوق النشر محفوظة للكاتب ودار نشر أدباء 2000 للنشر الإلكتروني

2000

العـــنـوان / أديـــلـيـــنـــا

تـــألـــيف / فاطمة الزهراء بدوي

تصحيح لغوي / مـدحـت رأفـــت

تصميم الغلاف / محـــمـــد عـــلي

*الموقع الخاص بالدار

http://entashaaer.wix.com/odabaa2000

*المدونة الخاصة بالدار ومجلة أدباء 2000 على البلوجر

http://odabaa2000.blogspot.com.eg

*الصفحة الخاصة بالدار على الفيس بوك

http://www.facebook.com/Odabaa2000/

*الجروب الخاص بالدار على فيس بوك

http://www.facebook.com/groups/1686790618200616/

*التواصل مع الكاتب

http://www.facebook.com/fatmaelzhraa.badawy?__mref=message__bubble

1- بورتريه

وهذه أيها السيدات و السادة، القطعة الأخيرة لمزاد الليلة، لوحة تعود إلى ما يقرب من ثلاثمائة عام مضت؛ حسب تقدير خبرائنا، اللوحة تمثل بورتريه لسيدة من الطبقة الراقية في تلك الفترة الزمنية، و صاحبتها " دورثي كاست "، حسبما وجد في السجلات و غير معروف على وجه الدقة التاريخ الذي رُسمت فيه، اللوحة تحمل توقيع " توماس هدسون " .. أشهر رسامي البورتريه في " لندن" خاصة في الفترة من (1705-1745) للميلاد، هذه اللوحة عُثِر عليها في منطقة " باندل هـ يل ".. و لا تنتمي لأي من مجموعاته التي تم بيعها، في ثلاثة مزادات منفصلة فيما مضى، يبدو - وذ لك حسب رأي خبرائنا أيضا - أنها لوحة من بدايات " هدسون "، و ربما قبل أن يتتلمذ على يد " جوناثان ريتشاردسون "، لكن هذا لا يمنع أنها قطعة فنية أثرية قيمة، لذا نفتتح المزايدة لراغبي اقتنائها ..."

غادرت المزاد حاملًا غنيمتي، بعد أن دفعت فيها مبلغًا لا بأس به، لكنني لم أهتم كثيرًا لأمر النقود قدر اهتمامي بالحصول على تلك اللوحة، شيء ما فيها جذبني إليها، شيء ما ألح عليّ ألا أغادر بدونها، كان بورتريه لفتاة شابة ذات وجه بيضاوي مضيء، رقبة طويلة نسبيًا و شعر داكن زادها إشراقًا، ملامحها دقيقة، أنف صغير، فم وردي اللون، ترتدي ثوبًا فضفاضًا من أسفل الخصر -أظنه ذهبي اللون، لست بارعًا جدًا في تمييز درجات الألوان - أكمامه مكونة من طبقتين، الأولى من نفس قماشة الثوب و تصل إلى ما قبل منتصف ذراعها بقليل، الطبقة الثانية بدت لي أفتح لونًا و أعطتني انطباعًا أنها من الدانتيل الثقيل، يزين الثوب من عند منتصف الصدر عقدة (فيونكة) كحلية اللون يتصل بها ما بدا لي كسلاسل من اللآلئ، من عند الكتف الأيمن، انسدل وشاح خفيف ذو لون أزرق خفيف به نقشات ذهبية اللون، في يدها اليسرى كانت تحمل زهرة وردية

اللون، تشبه الأزهار في السلة أسفلها و التي تمسك بها يدها اليمنى، الخلفية هي ما أثارت استغرابي، فكانت تبدو كجدار صخري و في جانب اللوحة الأيمن بدت السماء بلون الغروب

رغم أنها قد تبدو عادية، إلا أنها أسرتني، أنا سعيد حقًا بامتلاكها !! ..

علقتها في مدخل الشقة التي أسكنها، و لأجعلكم تتخيلون معي، عند الدخول من الباب هناك ممر قصير في نهايته توجد طاولة أشبه ب(كونسول) لكن بدون مرآة، سطحه من الرخام، علقت

غنيمتي من المزاد أعلاه، بدا و كأن أحدهما خُلق للآخر ليكمله، هي ليست شقة كبيرة، لكنها تكفيني كشاب أعزب، و إن كان إيجارها مرتفعًا نسبيًا، لكن هذه ضريبة السكنى بالقرب من

ضواحي لندن، نسيت أن أعرفكم بنفسي، اسمي "يوسف آدم"، مصري الجنسية، أعيش ب"لندن " منذ سنوات، أعمل كطبيب، لكن الفن هو هوايتي و عشقي الأول، إذا أردتم أن تبحثوا عني فستجدونني في متحف ما، معرض فني، أو حتى مزاد كالذي عدت منه لتوي، إذا لم أكن في أيهم، إذًا ستجدونني في مستشفى "سانت ماري" في حي "بادينجتون"، نعم مستشفى "سانت مارى" الشهير حيث اكتشف البنسيلين، و حيث معمل "ألكسندر فلمنج" -مكتشفه- و الذي أصبح متحفًا مفتوحًا للزوار، العديد من أطباء هذا المستشفى نالوا شهرة لا بأس بها، حتى أن أحدهم حاز على نوبل بفضل أبحاثه، من يدري، ربما يوما ما أكون قد صرت ذائع الصيت بفضل هذه المستشفى -بعد فضل الله تعالى طبعًا - يا للهول؛ عذرًا فلقد أطلت معكم بالحديث و لم أنتبه للوقت، عليّ أن أسرع للحاق بموعد مناوبتي، حسنًا، أراكم لاحقا.

لعدة أسابيع مضت سيطرت ملامح صاحبة "البورتريه" على خيالي، حتى أنني وجدتني متلبسًا برسم ملامحها على كل ما تقع عليه يدي، رغم أنني لست بارعًا بالرسم حقًا !!...

- " إنها حسناء يا "جو"، تُرى من هي التعيسة التي أوقعها حظها معك ؟"
- "هههههههه... هي ليست أحدًا أعرفه في الواقع يا "ألڤين" ... "

بتهكم رد عليّ قائلًا :

- أحقًا ؟!! .... إذًا لم كل أوراقك تحمل ملامحها ؟

- صدقًا... أنا لا أعرف حتى لها اسمًا، ربما فقط لأنني أراها أمامي طوال الوقت فحفظت ملامحها و رسمتها دون وعي مني.

نظر "ألڤين" إليّ وعلى جانب فمه ابتسامة ساخرة، و من ثم قال :

- و أين ترى تلك الحسناء طوال الوقت، إن لم يكن لديك مانع خذني معك، و سأعرف اسمها خلال خمس دقائق على الأكثر.

ثم غمز لي و هو يقول :

- و سآتيك أيضًا برقم هاتفها إن أردت.

تراجعت بظهري لأستند على ظهر المقعد، و أشحت له بيدي و أنا أقول ضاحكًا :

- تعلم أنني لست من ذاك النوع يا صديقي، لست من ذاك النوع، و أتحداك إن استطعت أن تخرج منها كلمة فهي لوحة "بورتريه" معلقة في مدخل شقتي

اعترت الدهشة ملامح "ألڤين" لبضع ثوانٍ -حتى أن فكه تدلى قليلًا بشكل مثير للضحك حقًا ومن ثم انخرط في الضحك حتى دمعت عيناه، و خرجت كلماته من وسط الضحكات بصعوبة و هو يقول :

- يا لك من بائس يا "جو"، أنت واقع في حب لوحة!!، يا لك من بائس، علينا أن نجد لك فتاة حقيقة يا رجل.

تمضي الأيام برتابتها المعتادة، و خيال ملامح "جاين دو" لا يفارقني، تتساءلون من هي "جاين"؟ إنها صاحبة "البورتريه"، نعم أطلقت عليها اسمًا، لا تسخروا مني، "جاين دو" اسم يُطلق على أي فتاة مجهولة الهوية، هكذا جرى العرف هنا، لكثرة ما انشغلت بها وجدت أنه من اللائق أن

أطلق عليها اسمًا، تلك ربما هي المرة الأولى التي يستحوذ عليّ فيها عمل فني لهذه الدرجة، حتى أنني بحثت في الشبكة العنكبوتية عن أعمال أخرى لذاك الرسام – "توماس هدسون" - فوجدت له العديد من لوحات "البورتريه" و العديد منها أكاد أجزم أنني ألمح فيه ملامح "جاين".

- كيف حال "جاين" اليوم يا "جو" ؟

تجاهلت النبرة الساخرة في صوت صديقي "ألڤين" و أنا أجيبه :

- في الواقع، لقد أمست تزورني في أحلامي الآن هناك شيء عجيب حقًا يتعلق بها، لست أدرك ما هو لكنني على يقين بذلك.
- صدقني "جو"... أنت فقط تحتاج لمزيد من العلاقات مع أشخاص على أرض الواقع بعيدًا عن اللوحات و المنحوتات الفنية.

كدت أعلق لكنه قاطعني مسرعًا و كأنما سمع ما كنت أفكر فيه :

- و بعيدًا عن مرضاك أيها المتحذلق
- بعيدًا عن المزاح، لقد أتتني البارحة في منامي، ولأول مرة تحدثت إليّ، كلمتين فحسب، أعثر عليّ .
- "بعيدًا عن المزاح؟!!... ما قلته بعدها لا يتفق يا صديقي مع تلك العبارة، أين ستعثر على فتاة وجدت منذ ثلاثمائة عام على الأقل؟! "
- لا أدري حقا.

2- جاين دو

تلك الليلة باردة حقًا، الأمطار تتساقط منذ وقت طويل، المساء قد حل و أنا الآن في طريقي لمحطة القطار النفقي لأعود لمنزلي، بعد أن عبرت الطريق للجهة المقابلة شيء ما ألح عليّ أن التفت للخلف؛ و هناك رأيتها، أنا واثق تمامًا أنها هي، أو ربما هي من نسلها، في كل الأحوال تلك الواقفة ترتجف بردًا، و قطرات الماء تسيل على وجهها تلصق خصلات شعرها بجبينها كانت نسخة منها، من "جاين"!، وجدتني أتقدم نحوها، حين اقتربت منها رأيت الحيرة تطل من عينيها، تتلفت حولها كطفل تائه يبحث عن أمه.

- أيمكنني مساعدتك آنستي ؟

ترددتْ لوهلة قبل أن تجيب، شعرتُ و كأنها تترجم كلماتي قبل أن تنطق رغم أنني لم أتحدث سوى بالإنجليزية

- أ... أنا لا أعلم أين أنا!!!

- حسنًا... لا بأس، هذا بسيط، أنتِ في حي "بادينجتون"، "بلندن"، ما هي وجهتك؟ و سأوصلك إن أردت

تلفتت حولها مجددًا، و من ثم قالت :

- أنا لا أعلم ما الذي جاء بي إلى هنا، و لا أعلم حتى، من أنا!!!!

ظللت أحدق بها لبعض الوقت ذاهلًا، لا بد و أنها ظنت أنني معتوه من نوع ما، حتمًا كنت أبدو معتوهًا و أنا فاغر فاهي بِهذا الشكل، لكنني معذور، فها هي ذاتها الفتاة في لوحة اقتنيتها،

نفس الملامح، نفس العيون، الأنف، الفم، الشعر، حتى ملابسها تبدو و كأنما جاءت من نفس عصر اللوحة الزمني، لوهلة ظننت حقًا أنه حلم آخر من تلك الأحلام التي تزورني فيها

مؤخرًا، لولا أن انتبهت على سؤالها :

- أتستطيع مساعدتي ؟ أيمكنك معرفة من أكون و ما الذي أفعله ها هنا؟

أجبتها في سرعة و كأنما كنت أنتظر تلك الفرصة، هذا تمامًا ما كنت أفكر فيه، و لا أدري السبيل لطرحه :

- بالتأكيد، سأبذل أقصى جهدي

كان أول ما جال بخاطري أن علي اصطحابها عائدًا إلى المستشفى.

- ما الذي عاد بك إلى هنا ؟!

قالها "ألڤين" ما إن رآني أدلف من مدخل المستشفى، حيث كان واقفًا في مكتب الاستقبال، و قبل أن أجيب كان قد انتبه لوجود "جاين" معي فهتف بدهشة بالغة :

- يا للسماء!! لقد عثرت عليها... لقد عثرت عليها فعلا !!!

التفتت إليّ "جاين" في حيرة و قالت :

- عثرت عليّ ؟!!

فلوحت بيدي و أنا أقول لها :

- لا تشغلي بالك به الآن، إنه محب للمزاح.

كاد "ألڤين" أن يهمهم بشيء ما لولا أن عاجلته قائلًا :

- أريد إخضاعها لفحص طبي شامل، الفتاة فيما يبدو فاقدة للذاكرة.

- و هل تملك تأمينًا صحيًا ؟!

- يا لك من متذاكٍ أقول لك أنها فاقدة للذاكرة ولا يبدو أنها تحمل أي هوية.

- ماذا عن

قاطعته في سرعة :

- سأتحمل كافة التكاليف، لا تقلق بشأن ذلك.

- حسنًا إذا، كما تريد.

و أخذ يطبع بعض البيانات على الحاسوب أمامه، ويجري اتصالًا بالقسم الداخلي، بينما هي، كانت لا تزال أسمى آيات الحيرة على وجهها، تتلفت حولها بريبة و خوف، شعرت نحوها بالشفقة حقًا، ماذا يمكن أن يكون أسوأ من أن تجد نفسك بلا هوية، بلا أشخاص مقربين يستطيعون إخبارك عنك، غريب في أرض غريبة، غريب حتى عن ذاتك، و لربما رأيت في المرآة انعكاسك و لم تعرفه كم هذا قاسٍ.

- حسنًا، يبدو لي هذا جليًا الآن يا صديقي، أنت منحوس

ضحكت و أنا التفت لـ "ألڤين" الذي كان يتكلم بجدية :

- لماذا ؟!، أعني بالتأكيد أنا منحوس لأنك ربما صديقي الوحيد المقرب منذ أن وطئت قدمي هذه البلاد، لكن بعد معرفتك بي طيلة السنين الماضية ما الذي جعلك تدرك هذا اليوم بالتحديد ؟

نظر إليّ نظرة تقول فلتحمد ربك أنني صديقك، ثم قال :

- في البداية تنجذب للوحة، تقع في حب صاحبتها، ترسمها، تحلم بها، و من ثم بمعجزة ما تلتقيها، لتجدها فاقدة للذاكرة، هذا نحس صافٍ يا عزيزي

مستنكرًا صحت :

- لم أقع بحبها، أنا.... لا أعلم، لكنني لم أقع بحبها، لست معتوهًا إلى هذا الحد، أقع بحب فتاة في لوحة، لا أعرف عنها شيئًا، كلا... كلا، لست معتوهًا لهذه الدرجة.

بسخرية قال :

- حسنًا.... إن كنت تظن ذلك.

أردت تغيير دفة الحديث فسألته عما إذا كانت "جاين" ستمضي الليلة هنا، فأجاب أن نعم و لربما تبقى لعدة أيام إلى أن تظهر نتيجة الفحوصات، لم أجد داعٍ لبقائي أكثر من هذا في المستشفى على أية حال فلا حاجة لي في الوقت الحالي، و إذا ما ظهرت أي مستجدات فلديهم رقمي، و سآتي على الفور، ذهبت لأودعها و لأطمئنها أني سأعود لاحقًا، و أنها في أيد أمينة، عليها ألا تقلق و ألا تحمل همًا، و تركتها بعد أن اطمأننت إلى أنها ستنام حتى الصباح، بعد أن حقنوها بمهدئ يساعدها على النوم.

شعور غريب ذلك الذي انتابني و سيطر على كياني، تلك السعادة العارمة لرؤيتها بصدفة غير محسوبة، تلك الحماسة لاكتشاف من تكون... !!!، لماذا أشعر و أنها ليست كأي فتاة أخرى ؟ لماذا كل هذا الاهتمام بها ؟، لم أعهدني هكذا قط، ترى ما السبب؟، أتراني حقًا وقعت في حبها كما قال "ألفين" ؟ ... لا... لا، هذا سخف، إنها غريبة عني كليًا، ربما هو الفضول و الظن أنها ربما ترتبط بشكل ما "بالبورتريه" ... "البورتريه"، ذلك لغز آخر، كيف يمكن أن تتطابق ملامح شخصين لهذه الدرجة، الفارق بين وجودهما بضع مئات من الأعوام ؟!!، تبًا لكل ذلك التفكير، رأسي تكاد تنفجر من الصداع، كل خلية بجسدي الآن تصرخ طالبة النوم، وعقلي لا يكف عن العمل، هلا هدأت يا هذا و أفسحت المجال قليلًا للسلطان.

ظهرت نتيجة الفحوصات الطبية، لا شيء مريب على الإطلاق، عضويًا هي سليمة تمامًا لكن، ذاكرتها محوة تمامًا، صفحة بيضاء لا شيء فيها ولا حتى ومضات عن من تكون أو من أين أتت، و كأنما انبثقت من العدم !!، لا أدري لِمَ، لكنني شعرت نحوها بالمسئولية، كُتِبَ لها تصريح خروج من المستشفى، مع توصية بالخضوع لجلسات نفسية لعلها تساعدها على استرجاع أي لمحة من

الماضي أو الحاضر القريب، كما يبدو جليًا، لم يكن لدى "جاين" مكان لتقيم فيه أو مصدر رزق تعيش منه، و كما قلت، أنا أشعر نحوها بالمسئولية لذا عرضت عليها الإقامة في منزلي، و لو بشكل مؤقت فقط، حتى تستعيد ذاكرتها أو تجد عملًا و منزلًا آخر، أيهما أقرب، في البداية، رفضت بذعر غير مبرر من وجهة نظري، فالإقامة المشتركة و تقاسم الإيجار أمر شائع هنا، رغم أن هذه لم تكن نيتي، فبرغم أنني أعيش هنا منذ زمن و اكتسبت بعض طباعهم، إلا أنني لازلت رجلًا شرقيًا، لا أقبل على أي أنثى ما لا أقبله على أختي، لا أقبل أن أحوم حول الحمى، أوضحت لها أنها -إن قبلت - فستقيم في شقتي و أذهب أنا للإقامة في مكان آخر، لن أقيد حريتها، أو أتعرض لها بشكل يضايقها بأي حال من الأحوال، كانت لا تزال مترددة ، لكنها قبلت على مضض، أظنها أدركت أن لا حل آخر أمامها سوى الشارع أو ملاجئ المشردين، و لا هذا و لا ذاك -من وجهة نظري - يحفظ لها كرامتها.

- ألڤين.

ابتسم ليّ بخبث و قال :

- هاتِ ما ورائك "جو"، تريد شيئًا ما، أستطيع أن أشتم رائحة ذلك في الهواء

ضحكت و أنا أقول :

- صرت تحفظني "ألڤين"، في الواقع كنت أفكر لو أمكنك أن تستضيفني في منزلك لبعض الوقت، "جاين" ستقيم في منزلي، و لا يصح قطعًا أن أبيت هناك، أو حتى مجرد أن أتواجد

رفع حاجبه و قال :

- ستلعب دور النبيل إذًا، ها... لا بأس، بعض الفتيات يردن فارسًا ليقعن في حبه.

قلت مستنكرًا :

- أهذا كل ما يشغل بالك ؟!

- هههههه بل ما يشغل بالك أنت، أنا لدي خطيبة تشغلني

- حسنًا أيها العابث، أخبرني، هل توافق أم ماذا ؟، أم أن عليّ البحث عن نزل ما ؟

- تعلم أنني لا أرفض لك طلبًا، و في الواقع أنت كنت في الماضي رفيق سكن جيد

- مرحبا "جاين"... .كيف حالك اليوم ؟، لقد أذن لك الأطباء بالخروج

- جاين ؟!

- إنه اسم مؤقت فحسب، حتى تستعيدي ذاكرتك.

- أها، حسنًا، أنا أظنني بخير، لازلت تائهة و أشعر بالحيرة، لكن .

- هذا أمر اعتيادي، ستكونين على ما يرام، سأحرص على هذا، لقد أخذت على عاتقي مسئولية مساعدتك

- لست أدري ما أقول، ترى لمَ كل هذا الاهتمام، فحسب قولك أنت لا تعرفني، لم تلتقيني من قبل، رغم أن كلام صديقك قد أعطاني إحساسًا مغايرًا.

لم أدرِ ما يفترض بي قوله ردًا على سؤالها، أنا أصلًا لا أعرف سر اهتمامي المبالغ فيه بها، شعرت بالحرج حقًا و تلعثمت الكلمات على لساني، و فيما يبدو شعرت هي بذلك - و كيف لها ألا تشعر بهذا و أنا أبدو كالطماطم الناضجة - فابتسمتْ بخجل و هي تقول محاولة إزالة الحرج عني :

- ربما التقينا في عالم الأرواح، هذا يفسر الأمر، أليس كذلك ؟

هززت رأسي موافقًا و أنا أردد ما قالت :

- بلى، ربما التقينا في عالم الأرواح

هذا تفسير مقنع نعم ربما يكون الأمر كذلك، ربما التقيتها عند نشأة الخليقة في عالم الأرواح و كما سمعت كثيرًا في صغري (الأرواح جند مجندة...) ربما تآلفت روحينا في وقت سابق لخلقنا

عدت بها إلى منزلي، بعد أن مررنا لابتياع بعض الملابس لها، و ما إن دلفت من المدخل حتى تسمرت أمام اللوحة، فبادرتها بقولي :

- اقتنيتها منذ فترة قصيرة ... جميلة ... صحيح ؟

- إنها تشبهني تماما !، لهذا عندما رآني "ألڤين" قال إنك عثرت عليّ !

- في الواقع، نعم، كان ذاك هو السبب .

- ألهذا أنت مهتم بمساعدتي ؟، لأنني أشبه لوحتك ؟

في الحقيقة، لم أكن أدري إن كان هذا هو السبب فعلًا، لكنني ارتأيت أنه سيكون جوابًا مناسبًا يجنب كلينا الحرج :

- ربما... لست أدري حقًا

(تبًا يا لي من أحمق، لم يتفوه لساني بما أشعر به دونًا عما أمليه عليه...)

اقتربت "جاين" أكثر من اللوحة تتفحصها، ومن ثم وجدتها تسحب وشاحها الذي كان ملتفا على رقبتها و تمسك به بالقرب من اللوحة، وشاحًا ذا لون أزرق خفيف و به نقشات ذهبية اللون...

- أظن اهتمامك في محله، أنا أملك ذات الوشاح المرسوم في اللوحة، و هي تملك ملامحي، من الصعب الاعتقاد بأن تلك مجرد صدفة...

- هذا البورتريه له صلة ما بكِ...

- هذا مؤكد.

و التفتت إلي لنقول في صوت واحد :

- علينا معرفة المزيد عن صاحبة هذه اللوحة.

تبادر إلى ذهني أن أكثر من يمكن أن يفيدنا بشأن اللوحة هو "أدريان جونز"، الشاب في قاعة المزاد حيث اشتريت اللوحة، فهو عادة من يقوم بالأبحاث المتعلقة بالتحف المعروضة في المزادات التي يقيمونها، هاتفته قائلًا أنني أرغب بلقائه بشأن آخر لوحة اقتنيتها من قاعة المزادات التي يعمل بها...

- أقسم لك سيد "آدم"، إنها أصلية و تستحق كل قرش دفعته فيها، أنت عميل دائم ولا يمكن أن أبيعك شيئا مشكوك في أمره.
- لا لا... ليس الأمر هكذا، أرغب فقط في معرفة مزيد من المعلومات عن صاحبة "البورتريه"، دورثي كاست "
- لست أدري إن كان لدي ما يفيدك، لكن تعال قابلني و سأخبرك ما أعرفه

لم نكذب خبرًا و كنا هناك في قاعة المزادات - أنا و "جاين" – قبل الموعد بساعة إلا الربع، شعور مختلط انتاب كلينا، كان هذا واضحًا في ملامح وجهينا، حماسة و توتر..!!!

- أتظنه سيخبرنا شيئا مفيدًا ؟، أعني... هل...

صمتتْ تاركة تساؤلها مبتورًا، فأكملت أنا قائلًا :

- هل أظن أنكِ "دورثي كاست" ؟

نظرت إليّ في دهشة و همت بقول شيء ما، إلا أنها أطبقت شفتيها مجددًا.

- حسنًا... سيكون هذا ضربًا من الخيال صحيح؟، لكن...
- لكن ماذا ؟
- أحيانًا الواقع يكون أغرب من الخيال

لم أدرِ من أين جاء ذلك الهراء الذي تفوهت به، كيف لها أن تكون "دورثي" التي عاشت قبل مئات السنين، لمَ أتفوه بالحماقات في حضورها، عجبًا!، إن لها تأثيرًا غريبا عليّ من قبل حتى أن أقابلها، أنقذني من أفكاري وصول "أدريان جونز".

- إذن ...ما الذي ترغب في السؤال عنه؟
- كل ما تعرف عن تلك اللوحة المسماة بـ "دورثي كاست"، من هي صاحبتها ؟؟، نسبها، أي شيء عنها على الإطلاق.
- لست أعلم عنها الكثير في الواقع، تاريخ رسم اللوحة غير معروف على وجه التحديد، توماس هدسون - الرسام - اشتهر بكونه رساما لـ "بورتريهات" الطبقة الأرستقراطية في زمنه، في الفترة من 1740 - 1760، و كان أوج نجاحه في "لندن" في الفترة من 1745-1755 سرت بعض الإشاعات عن وجود مذكرات له، و حسبما أعلم فإن أكثر من قد يف يدك هو أمين متحف "بريستول"، فهو يمكنه أن يؤكد لك وجود تلك المذكرات من ء دمه، وإن وجدت حقًا فهو سيعلم أين هي، و قد تكون في متحف بريستول ذاته.
- و ما الذي سأستفيده بمذكرات الرسام؟!!

كاد أن يجيب لولا أن سبقته "جاين" قائلة :

- لعله أتى على ذكر صاحبة اللوحة فيها "جو"
- السيدة محقة، هذا ما كنت سأقوله تمامًا، .. أ... عذرًا سيدتي، هل التقيتك من قبل ؟! أشعر أن وجهك مألوف لي "
- حسنًا، أشكرك على وقتك "أدريان"، لا تنس إبلاغي في حال وصول تحف فنية قيمة أخرى إليكم، هيا "جاين"، علينا أن نرحل
- بالتأكيد سيد "آدم"، سنكون على اتصال

- إذن... ما التالي ؟

- سأحجز تذكرتي قطار إلى "بريستول""

3- مذكرات توماس هدسون

طوال الطريق إلى "بريستول" كنت أراه يختلس النظرات إليّ، تلك النظرة في عينيه، لست أدري كيف أفسرها، ينظر إليّ و كأنه لا يرى سواي يشعرني بالأمان و كأنما مجرد نظراته تحاوطني، تحميني من المجهول الذي فجأة وجدتني فيه، تلقفني تائهة وحيدة، انتفض بردًا و منحني مأوى، ملاذًا آمنًا بلا أي مقابل، و ها هو الآن يجد السعي لمساعدتي على اكتشاف من أكون، عليّ إيجاد رابط ما يصلني بلوحة معلقة في شقته، ترى ما الذي يدفعه لبذل كل ذاك الجهد لمساعدة غريبة تمامًا عنه؟، أهو الفضول فحسب؟ أيعقل هذا ؟، و ماذا عن ذاك الشعور داخلي ؟، لمَ ارتحت له و نفذت كل ما طلب، لمَ قبلت الذهاب معه للمستشفى تلك الليلة؟، ما أدراني أنه لن يمسني بسوء؟ لربما كان يخدعني ؟، لكن قلبي هو من اقتادني، قلبي ؟!، أتراني وقعت في حبه؟ أم هو الامتنان لصنيعه معي و حسب، اختلست أنا الأخرى نظرة سريعة إليه، وسيم هو "جو، لكن الأهم من ذلك أنه رجل، رجل حقًا لا مجرد ذكر، تصرفاته جميعها تشي بذلك.

- حسنًا، ها قد وصلنا "بريستول"، أترغبين في تناول شيء ما ؟، وجبة خفيفة؟، كوب قهوة أو فنجان من الشاي؟

- لا، شكرًا لك، إذًا، أتعرف أين يقع متحف "بريستول" ؟!

- أجل، إنه في "كليفتون"، اختصارًا للوقت سنركب سيارة أجرة إلى هناك... هيا بنا .

الكثير من الأشياء تشعرني بالغرابة، الطائرات، القطارات النفقية، وسيارات الأجرة، السيارات عمومًا، الحواسيب، الهواتف النقالة، في الواقع أغلب ما حولي يشعرني بالغرابة، بالذعر و كأنما هي المرة الأولى التي أرى فيها مثل تلك الأشياء، حتى المنازل تبدو شاهقة للغاية و كأنهم عمالقة بانتظار الانقضاض علينا، ثم المصعد !!!، تلك العلبة المعدنية المغلقة الضيقة كلما ركبته شعرت أنه سيسقط في أية لحظة، أهكذا يكون فقدان الذاكرة؟ تمسي طفلًا مذعورًا من كل ما هو مألوف لمن عداك ؟!

هل معنى فقدان الذاكرة أنك تفقد كل ما عرفته يوما ؟، أم أن هناك ما يظل كامنًا داخلك لكنك تحتاج فقط الوقت لتراه و تدركه مجددًا ؟!

- ها نحن ذا، لقد وصلنا "جاين"

ربما قريبًا سأعرف جواب تساؤلاتي.

كانت الساعة تقترب من الرابعة و الثلث، كنا محظوظين أن سُمح لنا بدخول المتحف، كان كبيرًا حقًا، و به أقسام متنوعة لم تقتصر على الفنون فحسب، كان هناك قسمًا للجيولوجيا و قسمًا للفن الشرقي و آخر لتاريخ "بريستول"، غير أن هناك قسمًا للتاريخ الطبيعي، أما معرض الفنون فقد احتوى على أعمال من مختلف الفترات الزمنية، لا بد و أن آتي إلى هنا مرة أخرى، أتفرغ فيها لرؤية كنوز هذا المتحف، ربما يومًا ما بعد أن نعرف من تكون "جاين"!!، توجهنا من فورنا إلى أمين المتحف.

- لقد أوشكنا على الإغلاق، تنتهي ساعات العمل الرسمية في تمام الخامسة، أنصحكما بالقدوم في الغد، فلنقل في التاسعة صباحًا لتستطيعا أخذ جولة كاملة
- في الواقع سيدي نحن هنا اليوم من أجلك أنت لا من أجل جولة

ضحك الرجل الذي بدا أنه اقترب من الستين، رغم أن فقط ملامحه هي من تشي بسنه و قال :

- ربما أكون عجوزًا، لكنني لم أصبح بعد من معروضات المكان
- معاذ الله يا سيدي أن يكون ذلك مقصدي، في الواقع "أدريان جونز" قد أوصانا بك، و قال أنك الوحيد القادر على مساعدتنا

أومأ برأسه إيجابًا عدة مرات و هو يقول :

- أها .. "أدريان جونز"، الشاب من قاعة مزادات العاصمة صحيح ؟
- أجل .. سيدي
- هو شاب مجد في عمله، إذًا لابد و أنكما هنا من أجل تاريخ أحد الأعمال الفنية
- أنت محق مجددًا يا سيدي

ألقى نظرة خاطفة على ساعة يده ثم قال :

- حسنًا... امنحاني القليل من الوقت، فعليّ الإشراف على إغلاق المتحف، انتظراني خارجًا و سألقاكما
- حسنًا إذًا، كما تقول، هيا بنا "جاين"

لم يمضِ الكثير حتى رأيناه قادمًا نحونا، اقترحت الذهاب لمطعم ما أو لأحد المقاهي، فلربما يطول الحديث و لن نقضي الوقت واقفين على أقدامنا، و قد كان، لم أكن واثقًا كيف يمكن أن أبدأ الحوار ، لكنه وفر علي العناء حين قال :

- إذًا، أي الأعمال الفنية قد جئتما بشأنه ؟
- بورتريه" يحمل اسم "دورثي كاست" للرسام ..."

قاطعني قائلا :

- "توماس هدسون"، أجل .. أجل سمعت عن هذه اللوحة، و أظنني قرأت الاسم - دورثي - في مكان ما في مذكراته

في حماسة قالت "جاين" :

- إذًا فالمذكرات حقًا موجودة

نظر إليها مطولًا و من ثم قال :

- بالطبع موجودة، و "دورثي" تلك مذكورة فيها، كما ذُكر أيضًا اسم "أديلينا"، و تحدث كذلك عن محاكمات الساحرات التي انتشرت في وقت ما في تلك الفترة من الزمن

كانت لا تزال عيناه معلقتين بها - مما أورثني شعورًا عجيبًا بـ.....الغيرة التي لا أدري لها سببًا منطقيًا - لذا فقد حاولت تحويل بصره عنها إليّ فقلت له :

- أين هي تلك المذكرات إذًا ؟، و هل يمكننا الإطلاع عليها و قراءتها ؟

نجحت الحيلة، التفت نحوي و قال ببساطة :

- إنها في "ديفون"، حيث مسقط رأس "توماس هدسون"، تحديدًا في مدينة "إكستر" و يمكنكما قراءة نسخة منها هناك

في صوت واحد رددنا :

- ديفون ؟؟!!

فأجاب ببساطة و هو يتراجع بظهره ليستند على ظهر مقعده :

- أجل..."ديفون"

شعرت بخيبة الأمل تعلو ملامحها و نبرات صوتها وهي تنهض من على مقعدها و تقول :

- شكرًا على وقتك سيدي

نهضت أنا الآخر لألحق بها، حييت الرجل و ذهبت خلفها و ما إن لحقت بها حتى ربت على كتفها و كأنني أواسيها و قلت :

- حسنًا، يبدو أننا سنركب القطار مرة أخرى، ولكن ليس إلى "لندن"، ليس بعد، لم ينته الأمر، لازال هناك طرف خيط نتبعه

"ديفون"، الاسم يبدو مألوفا لأذني، إنها مقاطعة كبيرة واحدة من ثلاث أكبر مقاطعات "إنجلترا" وما يميزها عن باقي المقاطعات الإنجليزية، أنها الوحيدة التي تطل على القناة الإنجليزية وقناة "بريستول" في الوقت ذاته عاصمة المقاطعة مدينة "أكستر"، وهي إلى حيث نتوجه الآن، حين وصلنا كانت الساعة قد تخطت السابعة و النصف مساء، توجه "جو" إلى نافذة الاستعلامات، و تبادل بعض الكلمات مع الموظف هناك، ثم قفل عائدا إليّ.

- يبدو أننا سنضطر للمبيت هنا الليلة "جاين"
- لمَ ؟ ما الذي قلتماه هناك ؟
- لقد سألت أين يمكنني إيجاد مخطوطات تعود إلى ثلاثمئة عام مضت، فأجاب أن فرصتي الفضلى في مكتبة "إكستر"، فهي تحوي قسمًا للموروث الثقافي لـ"ديفون" لكنها أقفلت أبوابها الآن، نستطيع الذهاب غدًا في التاسعة صباحًا

The Great Western Hotel !! لا يبعد عن وسط المدينة سوى كيلو متر ونصف تقريبًا، كان لا بأس به، في الواقع لم يكن مستواه ليفرق معنا كثيرًا، كل ما أردناه وجبة ساخنة نشبع بها جوعنا و فراشًا دافئًا نلقي عليه بجسدينا المنهكين منذ الصباح، لا أعتقد حقًا أن أي منا قد نال كفايته من النوم العميق، ربما هو الحماس أننا ربما نقترب من معرفة شيء ما قد ينير لنا الدرب...!! حتى تلك اللحظات التي غفلت فيها أعيننا رغما عنا، حملت لنا أحلامًا و تصورات عما يمكن أن

نجده، استيقظنا باكرًا و التقينا في بهو الفندق و منه إلى المطعم الملحق، تناولنا إفطارًا سريعًا و فنجاني شاي، وإنطلقنا في طريقنا إلى مكتبة "إكستر"...

في طريقنا مررنا بالشارع الرئيسي، يا إلهي كم بدا مألوفا لي و كأنني كنت هنا في وقت سابق من حياتي، تلك الطرز المعمارية و الطرقات.

- هذا الشارع يبدو و كأنه لم يمر به الزمن مطلقًا، و كأنه قادم من الماضي، صحيح "جاين"؟!

التفت إلى "جو" و ابتسمت قائلة :

- لا أذكر شكل الحاضر لأعرف شكل الماضي لكنه يبدو مألوفًا على أي حال

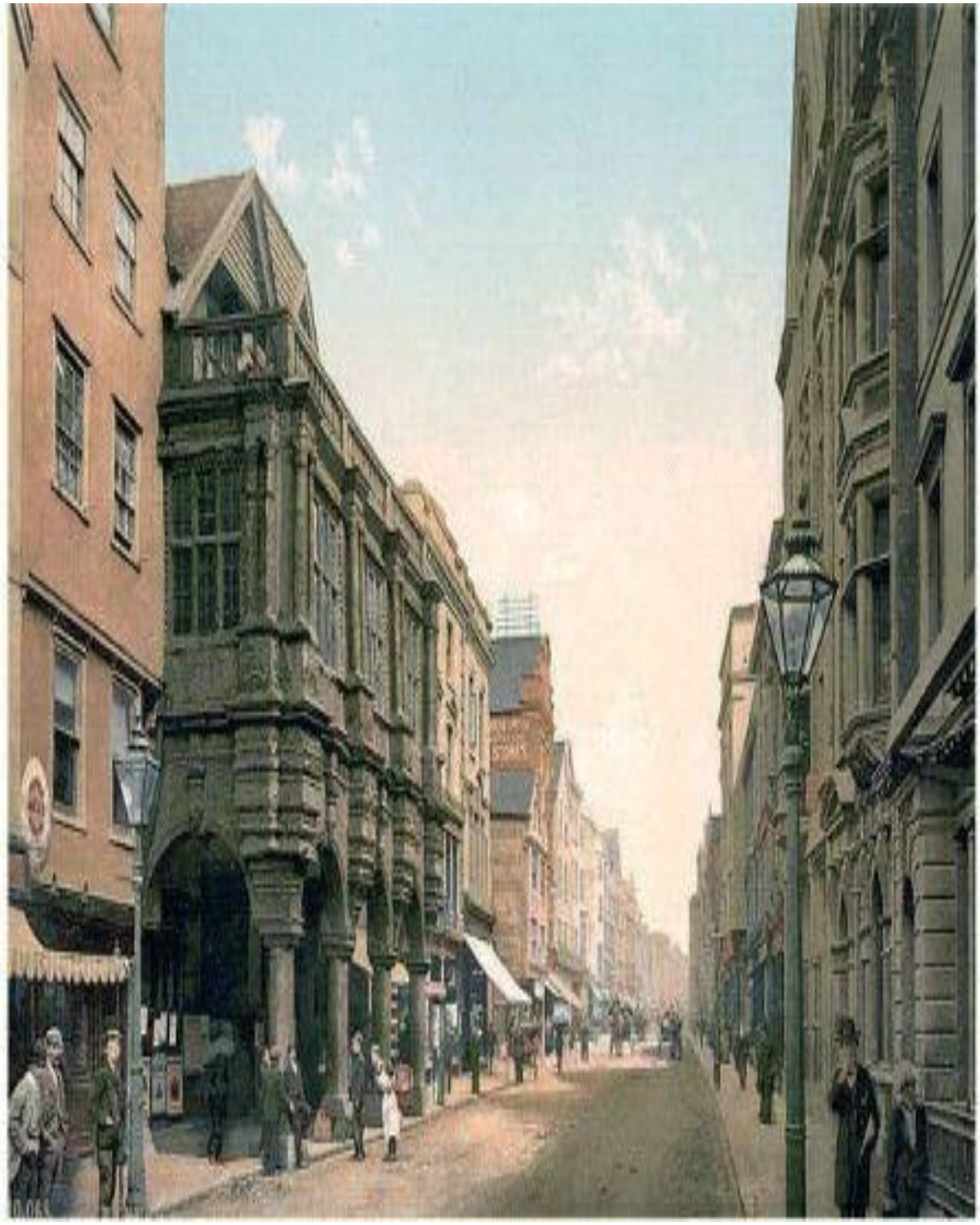

الشارع الرئيسي بمدينة "إكستر"

مكتبة "أكستر"

أخيرًا وصلنا - و لدهشتي- كان العثور على مذكرات "توماس هدسون " المحفوظة يسيرًا، لم أصدق أننا بهذا القرب من الوصول لشيء ما، أي شيء على الإطلاق، جلسنا بأحد الحجيرات و بدأ "جو" يمر سريعًا على الصفحات بعينيه، و عيناي معلقتان به، أركض لاهثة خلفه على الصفحات...!! و فجأة توقف، واتسعت حدقتا عينه بحماس من وجد كنوز "قارون" و قال :

- ها هي ذا، هنا ذكر اسم "دوروثي كاست"

و شرع في قراءة المكتوب أمامه بصوت مسموع :

(دورثي كاست، هذه الحسناء من الطبقة الأرستقراطية، اليوم انهيت رسم "البورتريه" الخاص بها طيلة الفترة الماضية التي كنت أتردد فيها على قصر عائلتها، كنت أشعر أنني عرفتها سابقًا، لا بل عرفتها في حياة أخرى، حملت هي فيها اسم "أديلينا"، و كأنني، قد عشت حياتين، الأولى لا أذكر منها إلا لمحات خاطفة، تتراءى لي في أحلامي، فيها أعرف "دورثي كاست" باسم "أديلينا" الغريب في الأمر حقًا، هو وجود فتاة في القصر بنفس الاسم، يِشاع أنها ابنة غير شرعية للسيد "كاست)

(تتذكرون عندما أخبرتكم عن "دورثي كاست"؟، حسنًا لقد اختفت، اختفت تمامًا منذ بضعة أسابيع الآن و بسبب هذا أتهمت "أديلينا" بالسحر و الشعوذة، و هذا لو تعلمون أمر مريع حقًا فكل من يشتبه بممارسته للسحر يقدم إلى المحاكمة من قبل الجماهير التي تشتبه به، وبالتواتر

وحده دون الحاجة لدليل مادي، و هذا راجع إلى تعاليم الكنيسة، كما ورد في كتاب مطرقة الساحرات*، لقد أخضعوها لاختبار الغرق، أحاطوا رسغيها و قدميها بالأغلال، و ألقوا بها في الماء حسنًا، لقد غرقت، أو كادت تغرق لولا أن أحد الواقفين هرع لمساعدتها و أخرجها من الماء في الواقع هذا لم ينقذها، بل زاد الوضع سوءًا لكليهما !!، فبالنسبة لها، أثبت هذا عليها تهمة السحر و الهرطقة، فقد قال القاضي أنها أثرت على ذاك الرجل بالسحر، و أما الرجل فقد اتهم أنه خضع لسلطة الشيطان و عليه صدر الحكم بإعدام كلًا منهما حرقًا كما جرى العرف في إعدام السحرة) (15عامًا مضت الآن على اختفاء "دورثي كاست"، و اليوم ظهرت مجددًا بنفس هيئتها وملامحها ا لتي رسمتها يومًا، و كأنما لم يمر و لو عامًا واحدًا على اختفائها....)

أخذ "جو" يقلب مجددًا في الصفحات ثم قال :

- هذا كل شيء، لا ذكر لها مجددًا في أي من الصفحات التالية و لو بشكل عابر حتى.

---

*كتاب مطرقة الساحرات .. هو كتاب كتبه اثنان من الرهبان، "هايرنش" و "جاكوب" .. الجزء الأول من الكتاب : يقتضي أن المسيحيين لديهم التزام (عقائدي – كنسي) بمطاردة (السحرة) وقتلهم..

الجزء الثاني من الكتاب : يعالج كيفية كتابة و عمل السحر من قبل الساحرات.

الجزء الثالث من الكتاب : يناقش ما الذي يمكن للمسيحي المؤمن أن يفعله ليساعد العدالة بتقديم الساحرات إلى المحكمة الكنسية (محكمة التفتيش) أو المحاكم المدنية بتهمة السحر، و فيه تحريض قوي على تقديم كل من يشتبه بممارسته للسحر إلى المحكمة من قبل الجماهير التي تشتبه به، وبالتواتر وحده دون الحاجة لدليل مادي.

4- لمحات من حياة مضت

تنهد "جو" و قال :

- يبدو أنه طريق مسدود، لم يذكر شيئًا عنها، عن نسبها، كنا لنستطيع حينها البحث نزولًا في شجرة عائلتها، لربما وجدنا ما يربطك بها .
- على العكس، لقد قال بعض الأشياء التي.....
- التي ماذا ؟!
- وجدت صدى في نفسي، أشياء بدت مألوفة لي جدًا .
- حسنًا "جاين"، الآن بدأت أشعر بالغباء قليلًا، هلا أوضحتِ بعض الشيء مقصدك ؟
- لا عليك "جو"، ربما لاحقًا يتضح الأمر أكثر، هلا عدنا إلى "لندن" الآن ؟، لا أرغب في أن تغيب عن عملك أكثر من ذلك

هز "جو" كتفيه و مط شفتيه في عدم رضا و من ثم قال :

- لابأس، حسنًا، أعني إن كان هذا ما ترغبين به...

عدنا إلى "لندن" مرة أخرى، أوصلني "جو" إلى شقته، تركني عند الباب و رحل ذاهبًا إلى عمله، شعرت أنه كان محبطًا لأنه لم يجد دليلًا مباشرًا يربطني بتلك اللوحة أمامي، أما أنا، فمع كل حرف يقرأه، كنت أرى في خيالي مشهدًا خاطفًا، و كأنها ذكرى، لكنها مشوشة، ذلك الاسم المذكور في المذكرات - "أديلينا" - إنه مألوف جدًا...!!، أنا مرهقة جدًا الآن ربما سأخلد للنوم قليلًا...

("أديلينا"، تعالي إلى هنا، من كسر تلك الآنية أتعلمين كم ثمنها أيتها الحمقاء ؟

- أنا آسفة أمي...

- و ما الذي سأفعله بأسفك حين يقرعني السيد "كاست" .. ها، ما الذي سأفعله حينها ؟

- أخبريه أن ابنته من كسرتها

- الآنسة "دورثي" ليست في القصر اليوم، و حتى إن كانت، أتريدينني أن أكذب، تبا لكِ من فتاة عاقة

بحنق قالت "أديلينا" :

- لم أطلب منك الكذب أمي، أولست أنا الأخرى ابنته ؟!

كاد الشرر يقفز من عيني الأم و هي تنقض على ابنتها تجذبها من ياقة ثوبها بشدة و هي تكاد تصرخ بصوت هامس :

- إياكِ أن تأتي على ذكر هذه السيرة مجددًا، أتفهمين، أترغبين في أن نتدلى من على أغصان الأشجار، ها... يا للهول!، منذ متى و أنتِ بهذا الغباء، تبًا يا فتاة...

انتظرت "أديلينا" إلى أن رحلت أمها، بعد أن وعدتها أنها ستنظف المكان و تعيد كل شيء كما كان ، كما كان تمامًا، لو أن أحدهم كان واقفًا لحظتها لرأى "أديلينا" تختفي فعليًا لبضع لحظات، ثم تظهر مجددًا، و يظهر المكان كما كان مرتبًا، كما أن الآنية تعود مكانها بدون خدش واحد حتى ...)

(جلست "أديلينا" تتأمل الماء المتدفق في القناة أمامها، و أخذت تحرك يدها في الهواء أمامها، الغريب أن مع حركة يدها، كانت قطرات الماء تتحرك لترسم نفس الأشكال التي ترسمها هي

فجأة شعرت أن أحدهم يقترب، فخفضت يدها و وضعتها على ركبتيها، في نفس اللحظة سقطت قطرات الماء لتندمج مع البقية، و كأنما كانت مربوطة جميعًا بخيط قد انقطع فانفرطت كحبات عقد لؤلؤ !!

- كيف حالك "آدي" ؟
- بخير "توم"... كيف حالك أنت ؟ و ما أخبار لوحاتك ؟
- إنها جيدة، أتحسن تدريجيًا، ربما قريبًا سأذهب لأتتلمذ على يد "جوناثان ريتشاردسون"، ألم تسمعي عنه .. ؟
- بلى، هنيئًا لك يا صديقي، أتمنى لك التوفيق .
- ما الأمر "آدي"؟، يبدو عليكِ الضيق
- لا شيء، أنا على ما يرام

نظر إليها قليلًا ثم قال :

- لا... هناك ما يثير ضيقك، أنا أعرفك أكثر منك، أعرفك مذ ولدتِ

أشاحت ببصرها بعيدًا في الفضاء و من ثم غمغمت قائلة :

- لقد نهتني أمي عن الحديث في الأمر سابقًا، و هناك الكثير من المستجدات تجري معي، و لم أستوعبها بعد...
- تعنين الحديث المتناثر، بشأن كونك ابنة غير شرعية للسيد "كاست"، أم... السحر ؟

التفتت "أديلينا" إليه بحدة و هي تهتف به قائلة :

- هل جننت "توماس"؟، أتسعى إلى حرقي حية؟!، ماذا لو سمعك أحدهم، ماذا لو كان أحد الإكليروس* مارًا من هنا في تلك اللحظة؟، تعلم أنهم لا يحتاجون لأدلة لتقديم مشتبه به في كونه ساحرًا للمحاكمة، يا للهول "توماس"، يا للهول...

ضحك توماس قليلًا و هو يقول :

- اهدأي " آدي"، لا أحد هنا سوانا، لا أحد على الإطلاق..

ثم مال على أذنها و همس قائلًا :

- لقد رأيت قطرات الماء ترقص في الهواء مع حركة يدك، أعلم أنك منهم، لكنني أبدًا لن أشي بكِ)

---

*الإكليروس هم رجال الدين المسيحي

استيقظت من نومي أشعر بالدهشة، هذا الحلم العجيب، شعرت أنه واقعي للغاية بدا، بدا و كأنه ليس مجرد حلم، يقين ما تولد بداخلي أن ما رأيته كان ذكرى من حياتي السابقة قبل أن أفقد ذاكرتي !!، نفضت رأسي بقوة و كأنما أحاول نفض الأفكار عنها، فما أفكر فيه غير منطقي بأي حال من الأحوال، لقد كنت في ذاك الحلم أحيا حياة "أديلينا" - تلك التي ذكرها "توماس هدسون" عابرًا في مذكراته - كيف يمكن أن تكون ذكرى؟، حتى لو افترضنا عبثًا أنني كنت أحيا في الماضي و بطريقة عبثية عشوائية ما امسيت ها هنا، أو أنه نوع من تناسخ الأرواح، "فالبورتريه" المعلق في مدخل هذه الشقة يقول أن حينها يفترض بي أن أكون "دورثي كاست" - حيث أنني أحمل ملامحها و أمتلك وشاحها - لماذا إذًا أراني في شخصية "أديلينا" تلك؟!،رباه، إن رأسي يكاد ينفجر من الألم، حتمًا سأظل في تلك الحيرة يا إلهي ؟!!

توالت الأيام، و ازدادت تلك الومضات في أحلامي، ترددتُ كثيرًا في إخبار "يوسف" عنها، ما الذي يمكن أن أقوله؟!، كيف لي أن أشرح شيئًا لا أفهمه؟، صرت كثيرًا أراني أحيا حياة "أديلينا" تلك، أمسيت أعرف عنها الكثير، هي حقًا ابنة غير شرعية للسيد "كاست" ذاك، ورثت عن عائلة أمها السحر و هو يجري في دمائها على ما يبدو، تمارسه أحيانًا عن غير وعي، وهذا في زمنها من أخطر ما يكون، فإن علم أحدهم بهذا فذلك يعني حكم الموت عليها !، مؤخرًا -في أحلامي - بدأت تتحكم في موهبتها تلك و تعبث بها أحيانًا، رأيتني - في شخصيتها و ملامحها - و كأنما أعود بالزمن للوراء، أحيانًا لساعات و أحيانًا لبضع أيام، أصلح أخطاء ارتكبتها دون أن يلمحني أحدهم و أعود لذات اللحظة التي اختفيت فيها في حاضري، أحاول استنتاج أثر التغيير الذي أحدثته في الماضي و أتصرف على أساسه، الوحيد الذي كان يعلم بشأن كوني أو كون "أديلينا" تلك

ساحرة كان الرسام، "توماس هدسون" ، يبدو أن مذكراته قد أغفل فيها الكثير، هذا لو افترضنا أن أحلامي واقعية و هو ما أظنه إلى الآن ضربًا من الخيال..

(كعادتها في وقت فراغها، جلست "أديلينا" تتأمل تدفق الماء في القناة، حين فوجئت بـ"توماس" آتيًا نحوها يركض من بعيد...

- "أديلينا"، أنتِ في خطر

انتفضت في مكانها و هبت واقفة تسأله في ذعر :

- ما الذي تعنيه ؟!
- سمعت بعض النسوة في السوق، يتهامسن بشأنك، يشتبهن في كونك ساحرة، تعلمين ما يعنيه هذا...
- يا للهول!، يا للهول!، ما الذي يفترض بي فعله الآن، يا لمصيبتي .
- حاولي أن تهدأي قليلًا حتى تستطيعين التفكير بوضوح، و أثق أنك ستجدين مهربًا ما
- لست أدري، لست واثقة كيف يمكنني الهروب هذه المرة

صمت "توماس" لبعض الوقت و بدا على وجهه التركيز العميق، ثم التمعت عيناه و قال :

- كما تهربين في كل مرة، عودي بالزمن للوراء و احرصي على تفادي أخطاءك التي جعلت شكوكهن تستثار
- لكنني لا أعلم تحديدًا ماهي تلك

بترت كلامها فجأة و رفعت بصرها إليه و هي تقول :

- "توماس"، أنت عبقري، سأعدل قليلًا فكرتك.

- كيف؟
- سأصبح الابنة الشرعية للسيد "كاست"، سلطاته ستحميني منذ طفولتي...
- لست أفهم، ما الذي تعنينه ؟ ماذا عن "دورثي" ؟
- سأصبح أنا هي، وهي ستكون في أمان، لأنها ليست بساحرة، لن يضيرها أن تصبح هي "أديلينا"
- كيف ستفعلينها ؟!
- كما قلت أنت، سأعود بالزمن للوراء، كلتانا ولدت في نفس اليوم، سأبدل "دورثي" بـ"أديلينا"، و أعود للحاضر مرة أخرى، أكون حينها "دورثي"
- ألن يكتشف أحد الأمر؟ لقد رسمتُ لها لوحة، ألن يكشفك اختلاف الملامح عنها ؟
- من تجاربي السابقة، ستتبدل ذاكرة الجميع، لتتواءم مع التغير الذي أحدثته)

ما الذي يعنيه هذا الحلم الأخير ؟!، ترى هل أنا "أديلينا" ؟، هل قمت بالتبديل؟!!، ربما هذا يفسر تسمية اللوحة التي تحمل ملامحي اسم "دورثي كاست"، ترى أيجب أن أخبر "يوسف" بأمر تلك الومضات التي تنتابني؟، أحان الوقت لهذا؟، أشعر بالألم في رأسي يزداد، ضوء الشمس الذي اقتحم الغرفة من النافذة المفتوحة يشعرني بالضيق، عيني لا تكادان تحتملانه، كم أود لو أن الستائر تنغلق من تلقاء نفسها، فأنا الآن أكسل من أن أنهض من الفراش، ترى هل لو أشرت لها بيدي ستنغلق؟!، هههههههه لقد أثرت تلك الأحلام على رأسي، لكن لمَ لا ؟! فلأجرب، نظرت إلى الستائر المفتوحة لوهلة، ثم أشرت إليها بيدي في اتجاه غلقها، لبرهة اعتقدت أن لا شيء سيحدث، لكن - و لدهشتي - بدأت تتحرك و لم يكن ذلك بفعل الهواء !!، لقد انغلقت الستائر مع حركة يدي... !!!

5-سحر "أديلينا"

منذ حادثة الستائر و أنا أشعر بالارتباك، هل كان ذلك من فعلي أنا ؟!، قررت المحاولة مع بضعة أشياء أخرى، وجدتني قادرة على غلق الأبواب، نقل الوسائد، حتى أنني صنعت لنفسي قدحًا من القهوة و جلبته عن بعد، كان يطير في الهواء، يتحرك وفق إرادتي، و يتبع إشارات يدي! هذا يبدو مألوفًا للغاية، الآن أنا واثقة من أنني "أديلينا"، أشعر بالذكريات تنساب تدريجيًا عبر ممرات عقلي، لا يزال هناك بعض قطع مفقودة من الأحجية، لكنني أشعر أن قريبًا الصورة ستكتمل ! فجأة شعرت بالذعر، ماذا لو اكتشف "يوسف" كوني ساحرة ؟!، هل سيشي بي و يقدمني إلى المحاكمة ؟، هل سيتركهم يحرقونني حية ؟ لماذا ساعدني منذ البداية إذا كان سيسلمني لاحقًا، للموت ؟، أرغب في إخباره بما اكتشفته عن نفسي، لكنني أخشى ردة فعله، ربما يجب أن استكشف أولًا كيف يمكن له أن يتصرف قبل أن أبوح له بأي شيء على الإطلاق...

بدت "جاين" متوترة على غير العادة، الفترة السابقة خاصة بعد أن عدنا من "إكستر – ديفون" لم أرى أن المذكرات حوت شيئًا مفيدًا فيما يتعلق بـ"جاين"، لكن، لكن شعرت أنها تخفي شيئًا ما، تخشى شيئًا ما، على كلٍ، سألتقيها الآن و سنتناول الغداء سويًا، أنا ألتمس لها العذ، فرغم كل شيء، أنا غريب عنها، حتى و إن كنت حاولت إثبات حسن نواياي، فلا سبيلًا فعليًا لها لتتأكد كانت واقفة تنتظرني في مدخل البناية احتماءًا من الأمطار التي بدأت تتساقط لتوها، قلت لها :

- هل تأخرت عليكِ كثيرًا ؟

- مطلقًا، أنا من نزلت مبكرًا بعض الشيء

ابتسمت و قلت :

- إذًا، هلا أسرعنا حتى لا نبتل ؟

بادلتني الابتسام و هي تقول :

- بعض البلل لن يضير أحدًا، دعنا نتمشى بتؤدة تحت المطر، نرفع رؤوسنا إلى السماء مغمضي الأعين، نأخذ نفسًا عميقًا نستنشق فيه عبير الأرض الرطبة، و لنغفل للحظات عن كل ما قد يثقل الكاهل، نسرق وهلة من الزمن نتخيل فيها أننا أحرار، نحلق لثوانٍ قبل أن نرتطم مجددًا بالواقع على الأرض.

كانت فعلًا مغمضة العينين، رأسها مرفوع للسماء، تأخذ شهيقًا عميقًا...

- أتحبين المطر ؟!

- لا أحبه، بل أعشقه ..

اتسعت ابتسامتي و قلت :

- ها هو جزء من ذاكرتك ذا قد عاد إذًا

لاحظت ارتعاشة عابرة في ابتسامتها، قبل أن تقول بضحكة بدت لي عصبية بعض الشيء :

- و ها قد عدنا إلى الواقع على الأرض..

شعرت أنني قد أفسدت الأمر، لذا تلعثمت بعض الشيء و أنا أحاول الاعتذار :

- أنا... آسف، لم أقصد، كنت فقط ..

قاطعتني قائلة :

- لا بأس... ليس الأمر بهذا السوء، هيا بنا، فأنا أتضور جوعًا..

لم أعرف كيف أبدأ في طرح أسئلتي لذا، و في خلال انتظارنا للنادل أن يلبي طلبنا، تركت الكلمات تتراص خروجًا من فمي، دون أدنى ترتيب أو صياغة...

- "جو"... كنت أريد أن أسألك عن شيء ما

ابتسم و قال :

- هاتِ ما عندك... .كلي آذان صاغية

- امممم ..كنت أتساءل عن .. حسنًا .. عن محاكمات الساحرات، تلك التي تحدث عنها "توماس هدسون" في مذكراته...

ضحك لبعض الوقت قبل أن يقول من وسط ضحكاته :

- هل أنتِ جادة ؟ محاكمات الساحرات ؟!

تطلعت إليه ببعض الدهشة و قلت :

- جادة تمامًا، لست أدرك ما المضحك في سؤالي !!

تلون وجهه ببعض الحمرة و تنحنح قائلًا :

- اعذريني، لكنني، أستمر بنسيان أمر فقدانك للذاكرة، و لم أعتقد أنه قد يخطر ببالك مثل هذا السؤال، نحن في القرن الحادي و العشرين، لقد اندثرت تلك المحاكمات منذ زمنٍ بعيد منذ ثلاثة قرون على الأقل ..

شعرت ببعض الراحة بعد إجابته، هذا يعني أنني بأمان من حكم الإعدام حرقًا، استرخيت في مقعدي نوعًا ما، ومن ثم سألته :

- و ماذا عنك ؟ ما الذي تظنه بشأن السحر ؟

- حسنًا... أي نوع من السحر تعنين؟، التعاويذ و التمائم و ما شابه، أم ماذا ؟!

- أعني مثلًا القدرة على تحريك الأشياء عن بعد، السفر في الزمن، هذا النوع من الأمور

- في الواقع أثق أن هناك فئة من الناس لديهم القدرة على تحريك الأشياء عن بعد عن طريق تركيز قدراتهم الذهنية و العقلية، لا أظن هذا سحرًا، أما عن السفر في الزمن، فلا أدري صراحة، يبدو هذا كضرب من المستحيل، لكن، من يدري، فيومًا ما كان السفر إلى الفضاء ضربًا من الخيال

ابتسمت و لم أعقب، ربما هناك أمل في أن يتقبلني "جو" بما أنا عليه حقًا

- لكن لمَ تلك الأسئلة عن السحر ؟!

اتسعت ابتسامتي و قلت :

- إنه الفضول و حسب، مجرد فضول

أحقًا كان مجرد فضول؟، لقد بدت "جاين" مهتمة كثيرًا بموضوع السحر هذا!، شعرت بالتردد في نبرة صوتها عند السؤال عن المحاكمات، بدت و كأنها ترغب في البوح بشيء ما و لكنها تراجعت، أنا الآن من يقتله الفضول، من قال أن الرجال لا يشعرون بالفضول ؟!، لم أستطع أن أقاوم فضولي أكثر من هذا، على الرغم من أننا افترقنا منذ بضع ساعات فحسب، إلا أنني قررت الاتصال بها لطلب لقاء قريب، كنت أحاول البحث عن حجة مقنعة لطلبي، ربما أتحدث عن ترتيب موعد في مكتب توظيف أو ما شابه، ما كدت أخرج هاتفي من جيبي حتى وجدته يرن !، و كانت هي!

- مرحبا "جاين"، يا لها من مصادفة، كنت على وشك الاتصال بكِ

- حقًا ؟، لمَ ؟، ما الأمر ؟

(تبًا لك يا لساني، لمَ لا تفكر قبل أن تنطق، لم أحكم حجتي بعد)

- آآ ...امممم... أخبريني أنتِ أولًا، هل هناك ما تحتاجينه؟، هل هناك مشكلة ؟

- لا... لا مشكلة على الإطلاق، كنت... كنت فقط ..

- كنتِ ماذا ؟

- أرغب في لقائك، هناك ما أريد البوح به...

- العشاء إذن ؟

- حسنا... سأنتظرك

اتخذت قراري، سأخبر "يوسف" بكل ما توصلت إليه و استنتجته، إنه الوحيد الذي أعرفه حقًا في هذا العالم، في هذا الزمن، هو من تولى رعايتي، أمّنَ لي مسكنًا، في الواقع تنازل لي عن مسكنه مؤقتًا، تحمل حيرتي، خوفي، و جهلي التام بكل ما حولي، سأخبره بشكل عملي، قطع أفكاري صوت جرس الباب.

- تفضل بالدخول "جو"

- ألن نخرج لتناول العشاء ؟

- لقد أعددت أنا الطعام، أتمنى أن يعجبك طهوي

دعوته للجلوس حتى أُتم إعداد الطاولة لكنه أصر على المساعدة، كان في طريقه للمطبخ حين وجد الصحون تحلق في الهواء، تتجه وحدها نحو طاولة الطعام، من فوره التصق ظهره بالحائط و صاح في دهشة :

- جاااين ... هل.. هل رأيت هذا ؟!!

خرجت و يدي لا زالت في الهواء توجه الصحون لتهبط بسلام على الطاولة .

- في الواقع "جو"، لقد أردت أن ترى هذا، هذا ما أردت البوح به لك

قال و هو لا زال مبهوتًا :

- لست... لست أفهم ما ترمين إليه "جاين"

قلت مصححة :

- "أديلينا" ...
- عذرًا ؟!
- فيما مضى أخبرتني أن "جاين" اسم مؤقت لحين أستعيد ذاكرتي.
- أتعنين... ؟

- أجل، لقد استعدت جزءًا من ذاكرتي، أنا هي"أديلينا" .

كل ما دار في ذهني في هذه اللحظة، هو أن "جاين" قد فقدت صوابها تمامًا !!، تلك المسكينة تظن نفسها ساحرة أعدمت في القرن السابع عشر !، إنها على ما يبدو مقتنعة بهذا تمامًا، حتى أنها أقنعت عقلها أن يستخدم قدراته و يصل لأقصى تركيز حتى استطاع تحريك الصحون!

- "جو"، أقسم لك، في الفترة الأخيرة بعد عودتنا من "ديفون"، راودتني الكثير من الرؤى ومضات عن حياتي السابقة، أنا "أديلينا"

أخذت تحكي و تحكي عن تلك الرؤى المزعومة، لقد أنشأت حياة كاملة في مخيلتها، صنعت رابطًا بينها و بين ذاك الرسام و بين صاحبة "البورتريه" "دورثي كاست"...

- ..... بما أن البورتريه يحمل ملامحي فهذا يعني أنني قمت حقًا بالتبديل، و نجحت في ذلك.

إنها تحاول تبرير كل الأمور لتتلاءم مع الحياة التي اختلقتها في رأسها... !!

- فلنفرض جدلًا "جاين"

قاطعتني مصححة بعند و إصرار :

- "أديلينا"

- لنفرض جدلًا "أديلينا" أنك محقة، و أنك من تدعين أنك هي و فعلت كل تلك الأشياء ما الذي جاء بك إلى هذا الزمن؟، إلى المستقبل حسب ادعائك ؟

بدا و كأن سؤالي قد صدمها، لم تضع في حسبانها هذه النقطة، توقها الشديد ألا تصبح مجهولة الهوية صنع لها عالمًا متكاملًا بنته من خيوط البحث المهترئة التي سرنا خلفها، و نسجت حولها عديدًا من التفاصيل لتدعم بنيانها، إلا أنها غفلت عن كيفية وصولها لزمن مغاير..

- آ... لست أدري، لازالت هذه الجزئية من ذاكرتي مفقودة، لكنني على ثقة بأنني سأتذكر

لم أحاول أن أطرح لها ما دار في ذهني من شكوك و افتراضات حول ذاكرتها الخيالية تلك، خفت أن يحدث لها انتكاسة من نوع ما، فبعد كل شيء أنا لا أعرف بعد ما تسبب في فقدانها الذاكرة في المقام الأول، لا أنكر أني حين رأيتها لأول مرة تحمست كثيرًا نظرًا للشبه الشديد بينها و بين لوحتي لكن، فلنكن واقعيين -حتى و إن اتسمتُ أنا ببعض الحماقة في البدء، لا يمكن أبدًا افتراض أن تلك المرسومة في "البورتريه" هي تلك التي تقطن شقتي حاليًا، صدقًا، هذا ضرب من الجنون و لا أريد أن تصبح شهرتي هي (مجنون صاحبة "البورتريه")، ليس هذا ما كنت أطمح إليه في مسيرة حياتي، طلبت منها أن تخلد للراحة و كتبت لها وصفة طبية ببعض أنواع المهدئات، حينها نظرت لي بعين التمعت فيها الدموع و قالت :

- "يوسف" صدقني، أنا لست بمعتوهة أو مصابة بمس من الجنون

كانت تتحدث بجدية تامة حتى أنها نادت اسمي بشكل رسمي و تلك كانت مرتها الأولى، ربت على كتفها و قلت :

- من ذكر العته او الجنون ؟!، لقد قلت فقط أنك بحاجة للراحة، و هذا من وجهة نظر طبية بحتة

مطت شفتيها، و أومأت برأسها إيماءة بغير ذي معنى، ظلت بعدها صامتة، حاولت كسر ذاك الصمت بقولي إن الطعام لذيذ حقًا و لابد أنها كانت طاهية محترفة في وقت ما، حاولت الابتسام

لكن ابتسامتها جاءت باهتة فاترة و لم تزد عن قول أشكرك، كانت تلك إشارتي للرحيل، فقد بدا أنه لا يوجد المزيد لنقوله في الوقت الراهن.

مرت بضعة أسابيع الآن مذ أخبرت "يوسف" أنني "أديلينا"، بدا واضحًا من ردة فعله أنه لا يصدقني، و إن حاول مجاراتي، شيء ما شعرت أنه انكسر داخلي بعدم تصديقه، رغم تفهمي لذلك نوعًا ما، كنت أظن أنه... لا أدري، سيستوعب الأمر بطريقة ما، ربما تسرعت في إخباره، ربما كان عليّ أن أحاول السفر في الزمن أولًا و اكتشاف بعض الأمور المستقبلية التي لم يخبرني إياها ثم أخبره بها، عله في هذه الحال يصدقني، طيلة الفترة الماضية حاولت، حاولت كثيرًا فعل هذا لكنني فشلت فشلًا ذريعًا، لست أذكر كيف كنت أفعلها، تلك الرؤى أو اللمحات الماضية أشبه بصور معروضة، لم تعطني ولو تلميحًا عن آلية الانتقال في الزمن، وإلى الآن لست أذكر كيف وصلت إلى زمن يبعد عن زمني بضع مئات من السنين...

لم أرها منذ عدة أيام الآن، ربما يقترب من أسبوع أو أقل قليلًا، كنت أغطي مناوبتي في المستشفى ، ومناوبة زميل لي تزوج و سافر لقضاء شهر العسل، هو يقضي وقتًا ممتعًا و أنا هنا لا أكاد أحظى بساعتي نوم متصلتين، أشعر أنني أفتقدها، لا أعلم هل هو التعود على لقياها يوميًا، أم أنني أشتاق إليها ؟!

- يا للهول "جو"، تبدو كمدمن لم يتناول جرعته...
- هههههه كنت لتبدو كذلك لو أنك لم تنم قرابة أسبوع "ألڤين"
- أهي قلة النوم فحسب أم غياب مجهولتك ؟
- "ألڤين"، كف عن هذا، لا شيء يجري بيني و بينها، نحن مجرد صديقين الآن، و أحاول مساعدتها فحسب على تذكر هويتها
- عيناك تخبران عكس لسانك "جو"، بالمناسبة لقد تحدثت مع مدير شئون العاملين

- بشأن ماذا ؟!

- بشأنها، لقد توسطت لها لتعمل في استقبال العيادات، لن تبقى مسئولًا عنها ماديًا طوال الوقت، إلا إذا....

قطع جملته و غمزني بعينه فحدجته بنظرة نارية، لا أدري حقًا لمَ استفزني مقصده رغم علمي أن هذه طبيعته، تراجع إلى الخلف رافعًا كفيه أمامه و كأنما يحتمي بهما مني و هو يقول ضاحكًا :

- حسنًا .. حسنًا، لا بأس، لن أذكر هذا الموضوع ثانية اليوم.

و انطلق يركض خارج الغرفة و هو لا يزال يضحك...

استلمت عملي بمستشفى "سانت ماري" منذ قرابة الشهر الآن، اليوم سأستلم أول راتب لي و رغم أنه يفترض بي أن أكون سعيدة و متحمسة، إلا أنني أشعر بعكس ذلك، لم أكتشف بعد سبب وجودي في هذا الزمن أو كيفيته، لم أتوصل لتقنية الانتقال عبر الزمن، و لم أفلح في إقناع "يوسف" بحقيقة من أكون، أعلم أنه يتظاهر بتفهمي، لكنني أعلم أيضا أنه لا يصدق، ليس بعد، من الجيد أن أكون مستقلة ماديًا، فقد أثقلت عليه كثيرًا، و إن احتمل "ألڤين" بقاءه معه لفترة، فذلك لن يطول إذ أنه على وشك الزواج و لن يرحب بوجود "يوسف" بالتأكيد لذا، فأنا من يجب عليها الانتقال... !، الميزة الأخرى لهذا العمل هو أنني يتسنى لي رؤيته كل يوم، أشعر بقلبي يتراقص طربًا لمجرد سماع اسمه يتردد حولي، شعور الفراشات ذاك في معدتي، حين أراه قادمًا من بعيد، هل... هل وقعت في حبه ؟!!

قررت اليوم أن أطلب منه مساعدتي في البحث عن مكان مناسب للانتقال إليه.

- ألا ترين أن الوقت لا يزال مبكرًا على الانتقال؟، لتوك حصلتِ على راتبك الأول...

- لا .. إنه الوقت المناسب، لقد أثقلت عليك بما يكفي، يجب أن أنتقل ليتسنى لك العودة لشقتك، يكفي ما تكبدت من عناء لأجلي

شعرت أنه يحاول كتمان غضبٍ ما اندلع داخله و هو يضغط على الكلمات قائلًا :

- أثقلتِ عليّ؟!!، ما الذي دفعك لقول هذا؟!، هل حدث و أن اشتكيت إليكِ ؟، هل سمعتني أتذمر ؟!

- لا يتوجب عليك أن تفعل أيًا من ذلك لا تحتاج الشمس لأن تشير إلى نفسها لأعرف أنها موجودة...

شعرت أن أوداجه تنتفخ، وجهه يكتسي بالحمرة، يحاول أن يأخذ نفسًا عميقًا، قبل أن يقول :

- دعينا نؤجل الحديث في هذا الأمر رجاء...

- لا .. بل دعنا ننتهي منه الآن

لأول مرة منذ التقينا أراه بمثل تلك العصبية، لأول مرة يصيح في وجهي :

- هل قصرتُ معك ؟، لا تزالين بحاجة للرعاية لا زلتِ لا تذكرين شيئًا فعليًا حقيقيًا عن نفسك، لا تملكين أوراق هوية و لا تعرفين هويتك أصلًا لتستخرجي لها أوراقًا رسمية، أم تودين أن أبحث لك عن استئجار من الباطن و مضايقات تنتج عنه ..ها ..

شعرت بالوجوم للحظات، و من ثم صحت فيه أنا الأخرى قائلة :

- لست طفلة "يوسف"، لست وصيا عليّ...

نظر إليّ لوهلة و من ثم اندفع خارجًا من بوابة المستشفى خارجًا... !، كان يفترض به أن يوصلني للمنزل و من ثم يعود، لكن بدا أنني أثرت غضبه حقًا، فأراد أن يبتعد و ينفرد بنفسه حتى يهدأ...

لم أرد أن يذهب و هو لا زال غاضبًا مني، رغم أنني لم أعرف ما الذي يمكن أن أقوله لاسترضائه، انطلقت أركض خلفه محاولة اللحاق به، ما إن خرجت من البوابة جلت ببصري في الأنحاء حتى رأيته يعبر الطريق للجهة المقابلة، رباه ، إن إشارة مرور المشاة حمراء، أشعر بقلبي ينقبض، يكاد ينخلع من مكانه أشعر أن أمرًا رهيبا سيقع ... !!!!، في ذات اللحظة، سمعت صوت صرير

عجلات عالٍ، اصطدام عنيف، لأجد بعدها جسد "يوسف" يطير في الهواء و بينما يهبط أرضًا تصدمه سيارة أخرى ليعود ليحلق لبضع ثوانٍ أخرى قبل أن يرتطم بقسوة بالرصيف، أردت أن أصرخ باسمه، لكن صوتي اختنق بحلقي، ركضت نحوه بساقين رخوتين، فوجدته ملقى على الأرض ، بلا حول ولا قوّة، يسبح في بركة من دمائه، شبه غائب عن الوعي، يحملق في السماء بعينين غائمتين، احتضنت رأسه و يدي تتخلل خصلات شعره الغارقة في الدماء اللزجة، و بصوت أقرب للبكاء قلت :

- "يوسف" أرجوك، ابقَ... أنا آسفة، لم أقصد إغضابك...أرجوك "يوسف"

بدا أنه لا يدرك وجودي، أخذ يتمتم ببعض كلمات لم أفهمها، و التقت عينانا للحظة قبل أن... قبل أن تختفي منهما لمعة الحياة... !!

- كيف يمكن لي أن أتنفس، كيف ليّ أن أحيا... "يوسف" أنا أشعر بالاختناق بدونك، أرجوك عد، أفق رجاء، هيا لا تتركني الآن

شعرت بأن أحدهم يسحبني بعيدًا عن جسده المسجي أرضًا، و آخر يربت على كتفي.

- لقد رحل، أنا آسف، لكنه رحل

أردت أن أصرخ ألف ألف صرخة، لكن صوتي اختنق بحلقي، فقط دموعي انهمرت كالشلالات يجب أن أعود، لابد أن أعود في الزمن لإنقاذه، رباه ذكرني كيف أفعلها لا أستطيع أن أفقده، لا.. لا أستطيع...

6- فقط لو أعود

بكيته كثيرًا حتى جفت مدامعي و بقي قلبي يذرف بدل الدمع الدماء، فقط لو أنني أجلت الحديث كما رغب، أو لو أنني لحقت به قبل عبوره الطريق، أو حتى جمدت الزمن لحظات، فقط لحظات أبعده فيها عن مسار السيارة التي أودت بحياته، أاااه... فقط لو أعود، لم أحتمل البقاء في منزله، كل شيء هنا يذكرني به، أكاد أسمع صوته يتردد في أذني، ارتديت معطفًا و خرجت أسير على غير هدى تحت المطر، فجأة وجدتني في شارع جانبي ما، شعرت برجفة خوف تسري في جسدي مع انتباهي لتربص أحد ما بي، كانا اثنين !!، حاولت تضليلهما، لكن لم أنجح في ذلك، في النهاية، وجدتني محاصرة في أحد الأزقة من قبل هذين الاثنين، بدا أنهما محترفي إجرام... !، أغمضت عينيّ في قوة و تمنيت في عقلي أن يتجمد الزمن بهما لأستطيع الإفلات - لدهشتي - توقف صوت حركتهما بغتة، كما توقف صوت المطر أيضًا، فتحت عينيّ لأجد... حسنًا لا أدري كيف أصف ذلك، كانا كتمثالين، أو كصورة تم تثبيتها أثناء الحركة، حتى أن قطرات المطر كانت معلقة في الهواء و كأنما المشهد كله تم تثبيته، و صرت أنا المتحرك الوحيد فيه، لم أحاول البحث عن تفسير للوقت

الحالي، فالفرصة قد سنحت للإفلات و لا أدري كم ستدوم وعليّ استغلالها، انطلقت أعدو عائدة للشقة و ما إن ابتعدت بشكل آمن كفاية حتى عاد المشهد للحركة مجددًا، كنت أسمع من بعيد صوت سبابها الساخط و تساؤلها كيف اختفيت من أمامها و كأنني تبخرت... !، كل ما دار في رأسي وقتها، تجميد الوقت هو من قدراتي !!!

عدت إلى شقة "يوسف" ألهث، بالكاد أستطيع التقاط أنفاسي، لا بد أنني ركضت مسافة طويلة للغاية، كنت أركض و كأنما شياطين الجحيم تطاردني، لكنني استفدت، اكتشفت قدرة أخرى غير التحريك عن بعد، إنها تجميد الوقت، يبدو أن عليّ أن أرغب بشدة في أمر ما لأستطيع التحكم في، ربما هذا هو ما عليّ فعله لأعود في الزمن، لأستعيد "يوسف"... !!، عليّ أن أحاول أكثر فأكثر حتى أتمكن منه و أتقنه، لقد كان اليوم طويلًا، مُرهقًا، لقد شهدت موت "يوسف" صباح اليوم، و هذا وحده كفيل بالقضاء على أعصابي، سأحاول الخلود للنوم وغدا يوم آخر...

ستة أشهر مضت منذ رحيل يوسف، ستة أشهر لم أتوانَ فيهم عن محاولة إتقان التحكم في الزمن، ما يجعلني قادرة على تجميده، حري به جعلي قادرة على التنقل خلاله ذهابًا و إيابًا في أي اتجاه أردت، اليوم كان مختلفًا عن بقية الأيام، فقد تذكرت، أجل تذكرت كيف وصلت إلى هنا!، تذكرت عودتي إلى ما بعد مولدي ببضع ساعات، حملت نفسي الرضيعة وأبدلت مهدها بمهد "دورثي"، أختي الغير شقيقة، كنت لتوي قد أتممت ما عدت لأفعله، بالكاد كنت أضع "دورثي" في المهد الخاص بي بعد أن أبدلت ملابس الطفلتين مع بعضهما، لأجد "توماس هدسون" - طفلًا لم يتجاوز الخمس سنوات، يحملق فيّ بدهشة فاغرًا فاه ...اضطربت، لم يكن من المفترض أن يراني أحد على الإطلاق، حرت في أمري !!، ماذا أفعل ؟، و لم يتفتق ذهني لحيلة غير تلك الحيلة ! ربت عليه و أخبرته أن هذا مجرد حلم و أنه يسير نائمًا وعليه العودة لمنزله و استكمال نومه فالوقت قد تأخر لم يبدُ عليه أنه اقتنع، كان عليّ أن أقوم بتجميد الوقت أولًا، لأستطيع من ثم السفر إلى حاضري شعرت بأحدهم يتسلل للغرفة خلسة، إنها تبدو كخطوات شخص بالغ !! عليّ الرحيل حالًا، إن كنت لا أريد أن أعدم حرقًا، كنت متوترة للغاية، لذا فقد حاولت تجميد الوقت و القفز في الزمن في آن واحد، و كان هذا هو خطأي، أفقت لأجدني واقفة على الرصيف في "بادينجتون" و لكن في العام 2016، كنت مرتعبة، لا أذكر من أكون، ربما هذا هو أثر التبديل ، الذاكرة أرادت أن تح

مل ذكريات "دورثي"، لكنها لم تعشها فعليا، و إنما عاشت ذكريات مغايرة بقت في العقل الباطن و لم تُمحَ كما كان يفترض بها، وصلت لهذا الزمن في اللحظة المناسبة لألتقي "يوسف" !، عليّ أن أتمرن على القفز في الزمن جيدًا لأعود للحظة المناسبة لإنقاذه، لا بد لي من أن أعيده، من الجيد أنني تمرنت كثيرًا على التجميد، بقي لي التركيز على القفزات الزمنية !!!

أخذ الأمر وقتًا أطول مما توقعت أو تخيلت، مضى الآن ما يقرب من أربعة أعوام على وفاة "يوسف"، اعتدت الحياة في هذا الزمان، استقررت في عملي في مستشفى "سانت ماري" و لازلت أسكن شقة "يوسف" و لم يمانع صاحب الشقة في هذا، لم أرغب في أن أتركها حتى يعود هو إليها، "ألفين" تزوج منذ ما يقرب من ثلاثة أعوام، و سمّى طفله باسم "جوزيف" تيمنًا بـ "يوسف"، لا زال يتصل بي على فتراتٍ ليطمئن على أموري، هو الآخر لازال يعمل في المستشفى رغم أن له الآن عيادته الخاصة التي يشارك فيها زميلًا له، أخيرًا بعد كل هذا الوقت استطعت أن أنتقل في الزمن ذهابًا و إيابًا، صحيح أنني لم أتقنه تمامًا كما أرغب، لكنني لم أعد أحتمل الآن انتظارًا أكثر، أدرك الآن أنه لأنجح في الانتقال عبر الزمن، عليّ أولًا أن أقوم بتجميد الوقت و التأكد من ذلك، و من ثم أركز تفكيري على الزمان و المكان الذي أرغب في الانتقال إليه، عليّ أن أكون في شدة التركيز، تشتت انتباهي و لو لبضع ثوانٍ قد يغير الزمن أو المكان الذي أنتقل إليه، لقد عزمت أمري، الليلة سأذهب إلى حيث فقدت "يوسف" و سأعود لاستعادته، سأمنعه من عبور هذا الشارع و سأفعلها قبل أن تخرج نفسي الموجودة في هذا الزمن من المستشفى، راجعت أحداث هذا اليوم في ذهني آلاف المرات، يجب أن أحرص على عدم حدوث

أي أخطاء، عليّ أن أكون هناك قبيل الثانية ظهرًا، سأنتظره، سأشغله، أعتذر له، أفعل كل ما يمكنني فعله لأمنعه من العبور، سأغير مجرى الزمن عند تلك اللحظة .....

أنفاسي تتسارع و كأنها في سباق ماراثون، أقف على الرصيف الآن حيث رأيت "يوسف" يفقد حياته منذ أربعة أعوام مضت، الصمت يسود حتى أنني أسمع صدى ضربات قلبي الذي يكاد يقفز خارج ضلوعي، الساعة تجاوزت منتصف الليل، عليّ أن أبدأ الآن، أغمضت عينيّ، فليتجمد الوقت الآن، فتحت عيناي، لا سبيل لي أن أتأكد من نجاحي في ذلك إلا النظر في ساعة يدي التي أهداني إياها "يوسف" يومًا ما، لقد توقفت عقاربها، أظنني فعلتها، الآن عليّ أن أركز، أريد أن أكون في ذات مكاني قبل أربعة أعوام، الثانية ظهرًا .. !!، أغمضت عينيّ، أشعر الآن بجزيئات جسدي تبدأ عملية الانتقال، أحاول الاسترخاء، لكنني متوترة للغاية، هلا هدأتِ أرجوك، فجأة ، صوت مواء قطة، تبًا، لقد تشتت انتباهي و فتحت عيناي، هل كانت ساعة يدي معطلة ؟ ألم أنجح في تجميد الوقت تمامًا ؟ من أين أتت تلك القطة ؟، تظلم الدنيا تمامًا حولي، و في اللحظة التالية، أنا لا أزال واقفة في مكاني، لكنها الظهيرة، هل ... هل نجحت بالعودة ؟؟؟!! أتلفت لأنظر حولي، يا للهول، لقد تأخرت، لقد عدت متأخرة، "يوسف" بدأ عبور الطريق فعلًا ... !!

التاسعة صباحًا، الاثنين، السادس من أغسطس من عام 2020 هذا ما أشارت إليه الساعة ا لمعلقة في بهو الاستقبال بالمستشفى، لقد عدت، عدت في صباح اليوم التالي لليوم الذي قفزت فيه للماضي، لقد نجحت!، لقد فعلتها حقًا !، ترى هل سأراه الآن ؟

- صباح الخير "أدي"، كيف حالك اليوم ؟

(أدي ؟؟؟ منذ متى يناديني "ألفين" بهذا الاسم ؟؟!!)

- على خير ما يرام "ألفين"، كيف حالك أنت و حال "ماري" ؟
- بخير ... نسيت أن أخبرك، لقد اعتمدت شيكات المرتبات، تستطيعين الذهاب لقبضها الآن

هذا رائع أشكرك على المعلومة، بالمناسبة، كيف حال "جو" الآن ؟

- هههههه .. أنا من يفترض به سؤالك عن "جو"، أنت من يبيت معه لا أنا "أدي"، ألقِ عليه التحية بالنيابة عني

(أبيت معه !!، ما الذي تغير بالضبط خلال الأربع سنوات الماضية ؟؟!)

- هههه ... لم أتناول قهوتي بعد، لست بكامل تركيزي، كنت أقصد سؤالك عن ابنك

- نقص الكافيين، أدرك ما تعانينه، "دانييل" بخير، لقد بدأ يتحسن، أشكرك على سؤالك

- لا شكر على واجب، حسنًا أراك لاحقًا "ألفين"

يبدو أنني سآخذ بعض الوقت لأدرك ما أحدثته بتغيير الماضي، كنت مترددة في العودة لمنزل "يوسف"، ربما أنا لا أعيش هناك الآن، لكن لست أدري أين أصبحت أقيم، هذا عيب تغيير الأحداث في ماضٍ بعيدٍ نسبيًا، يصعب استنتاج و معرفة ما ترتب عليها، أولجت المفتاح في الباب ، و ما إن دخلت حتى وجدت فتاة صغيرة -ربما تخطت عامها الأول ببضعة أشهر قليلة، تركض متجهة نحوي، تحتضن ساقيّ بيديها الصغيرتين بحب، و تناديني " ماما " !!، حملتها و سرت إلى الداخل محتضنة إياها أتأملها، ملامحها إلى حد كبير تشبهني إلا أن عيناها و شعرها يشبهان ...

- حبيبتي لقد عدت مبكرًا اليوم ...

"يوسف" ! "يوسف" يناديني حبيبتي !، من الواضح أنه قد فاتني الكثير !

- ما الأمر ؟ ما بكِ عزيزتي ؟ تبدين مذهولة، حائرة، شيء من ذاك القبيل

كنت أحملق في الصورة المعلقة على الحائط خلفه، كانت صورة زفاف ..!، صورة زفافي أنا! و يوسف !

- "جو" ... أنا لست أدري ما أقول

اقترب مني و أخذ يتحسس شعري و من ثم طبع قبلة على جبيني، أجلسني على الأريكة و أخذ الطفلة مني ثم قال :

- حسنًا .. لقد فهمت، لقد عدت لتوك من قفزة زمنية للماضي .. صحيح ؟

قالها بكل بساطة و كأنه أمر اعتيادي فأومأت برأسي إيجابًا و أنا مبهوتة ...!

- لكم من الوقت ؟

- أربع سنوات ..

ابتسم بحنان و قال :

- أجل ... أذكر ذاك التاريخ، لفترة طويلة بعدها ظننت أنني كنت أهذي، في لحظة كنت أعبر الطريق، و في الأخرى كنت ملقى على جانب الرصيف، لوهلة رأيت اثنتان منك، واحدة على الرصيف المقابل، و الأخرى قادمة من الاتجاه المعاكس تركض نحوي .! أوتعلمين ؟، رأيتك تبتسمين لي و كأنك تنفست الصعداء، لوحت لي، و في اللحظة التالية كنت قد تلاشيتِ من المكان، و كأنك تبخرت حرفيًا، حاولت بعدها إقناع نفسي أنني كنت أهذي، و لفترة لم أخبرك بما رأيت ،لكن

- لكن ماذا ؟

- كانت تراودني رؤى، شبيهة بما كنت تحكينه لي سابقًا، عن حياة موازية، سبق أن عشت فيها، لكنها لم تعد موجودة، فيها صدمتني سيارتان بشكل متتالٍ، و تظلم الدنيا بعدها تمامًا

- لقد فقدتك ذاك اليوم، لم أستطع التعايش مع ذلك، حتى البارحة صباحًا كنت غير موجود زرت قبرك البارحة و قطعت عهدًا أنني سأعيدك ...

اتسعت ابتسامته و قال :

- و ها أنا ذا ...

ساد الصمت لوهلة أخذت أنقل بصري بين الصورة و الطفلة التي أخذت تلعب أمامنا أرضًا، ومن ثم سألته و أنا أشير إلى الصورة برأسي :

- منذ متى ؟

- عامان و نصف الآن ...

ثم ألقى نظرة باسمة على الطفلة و قال :

- و رزقنا فرح منذ عام و نصف..

أصبحت لي حياة كاملة في المستقبل، باعتبار الزمن الذي أتيت منه، زوج و ابنة تتمناهما أي فتاة في الدنيا، أشعر بالأمان هنا، لكن الدنيا تمنحك الحياة في هيئة رزمة منوعة تكمل بعضها بعضًا بنسب مختلفة، فلن تجد شيئًا أبدًا تصل نسبته لمئة بالمئة، و عليك أن ترضى بالنسب الممنوحة لك، فإن حاولت تغيير إحداها فاعلم أن جميعها سيتغير، أو على الأقل بعضها بالتبعية، لطالما أرّق منامي ما قرأناه في مذكرات "توماس هدسون"، عن كون "أديلينا" في زمنه اتهمت بالسحر و أعدمت حرقًا نتيجة اختفاء "دورثي كاست"، أي أنني السبب في إعدامها، من المؤكد أن اختفائي في شخصية "دورثي"، ناتج عن أنني لم أعد لنفس التاريخ الذي رحلت فيه إلى الماضي ! كثيرًا ما فكرت في أنه يجب عليّ العودة لأعيد الأمور لنصابها مجددًا، أعيد كل شيء لما كان عليه ! لكن، هذا يعني أن أتخلى عن حياتي بأكملها، عن سعادتي مع "يوسف" و "فرح"، هذا يفطر قلبي و إذا ما بقيت، فسأضع رأسي على الوسادة كل ليلة عالمة أنني تسببت في حرق بريئة حتى الموت فقط لأن قدرها جعلها أختًا غير شقيقة لي، فقط لأنني أنانية فكرت في مصلحتي فقط و كيف أحمي نفسي و لم أضع اعتبارًا لكيف سيؤثر ذلك على حياة البقية، الحيرة صارت عنوانًا لحياتي، العبث في خط الزمن له عواقب !، و الآن صرت أشك أن الرضى عن التغيير المستحدث سيكون تامًا، دومًا سيكون هناك شيئًا آخر تود تعديله، نسبة أخرى ستختل في نظرك، ناهيك

عن اختلاط الذكريات في رأسك، تعدد الخطوط الزمنية التي نشأت كنتيجة تغيير حدث ما في الماضي ستربكك في كثير من الأحيان، حتى أنك ستفقد القدرة على ربط الأحداث بعضها ببعض و إذا ما كانت حدثت فعلًا في الخط الزمني الذي تتواجد فيه الآن .. !

- "جو" ... هناك أمر ما أرغب في الحديث عنه معك، يشغل بالي منذ فترة الآن

قلتها في فتور :

- كلي آذان صاغية، أهو عن أحداث الأربع سنوات الماضية ؟، أم عن لماذا كنت متقبلًا للغاية فكرة أنك تسافرين في الزمن ؟
- هذا و شيء آخر ..
- هات ما لديك "أدي" ..
- تذكر ما كُتب في مذكرات "توماس هدسون" ؟، عن محاكمة "أديلينا" و إعدامها حرقًا بتهمة السحر ؟
- أجل .. ماذا بشأنها ؟
- لا أستطيع إبعاد هاجس أنها أعدمت بسببي، لو لم أقم بالتبديل منذ البداية، أو لو أنني عدت إلى حاضري في نفس وقت اختفائي، لربما ظلت هي على قيد الحياة، أعني، لم تعدم في الماضي ..
- لو أنك ما قمت بالتبديل و أخطأت في الحضور للمستقبل، لما التقيتك أو عرفتك قط، لما أسرتني في شباك حبك، لما حظينا بـ"فرح"، طفلة تحمل ملامح كلينا، تكفي ابتسامتها لتشع البهجة كأشعة الشمس حولها ..
- أعلم هذا "يوسف" ... أعلم، لكن ..

احتضن رأسي و ربت عليّ بحنان و هو يقول :

- لكن تشعرين بالذنب

أبعدته عني برفق و قلت و الدموع تحتبس بين أجفاني :

- أجل ... لا أستطيع تحمل فكرة أن أحدهم قتل بسببي، أضف أنها أختي، حتى و إن لم تكن شقيقتي، حتى و إن لم تعاملني يومًا من هذا المنطلق ...

ساد الصمت لوهلة قبل أن يقول :

- ما الذي تفكرين فيه ؟

- لا بد لي أن أصلح ما أفسدت، علي أن أعود لأعيد التبديل مرة أخرى

أطرق "يوسف" برأسه أرضا و غمغم قائلا :

- ألا يعني ذلك أن كل ما مضى سيُمحى ؟، سيمسي الأمر وكأنني لم أعرفك يومًا، ستختفي "فرح"، أنت ستختفين

انفجرت الدموع من عيناي، و ارتميت في أحضانه، كنت أحتمي به، لكم أشعر بالضعف و العجز الآن، أمران أحلاهما مر و لا بد لي أن أختار ..!

- منذ استطعتِ إقناعي بمن تكونين، و أنا أحمل هم تلك اللحظة، تلك المذكرات ذكرت عودتك بعد اختفائك لفترة من الزمن، كنت أتمنى ... لست أدري، لكن يبدو الآن أن الاختيار قد حسم مسبقًا

رفعت رأسي إليه بعينين دامعتين و بصوت مختنق قلت :

- سأعود، لابد أن أفعل، لا أقدر على الحياة دونك، سأعود لأستعيدك و أستعيد "فرح"، أعدك أن أبذل قصارى جهدي .

أستطيع رؤية التردد باديًا في عينيها، أستطيع تفهم الأمر، أن ذلك ليس هينًا أبدًا، صحيح أنها لا تذكر أحداث السنوات الأربع الماضية لأنها لم تعشها فعليًا، إلا أنها تدرك الصورة العامة، تدرك حبنا المتبادل لبعضنا البعض، تدرك وجود ملاك صغير يجمعنا، تدرك أن عودتها تلك المرة - إن عادت، تعني نسف كل ذلك، محوه من الخط الزمني الذي سينشأ نتيجة التبديل مرة أخرى، ستُمحى ذاكرتي عنها و لن يعود هناك وجود ل"فرح"، لكنها أيضًا لم تعد تحتمل شعور الذنب !، و لأنني أذوب فيها عشقًا عليّ أن أتخلى عنها، أسمح لذاكرتي أن يتم محوها، عليّ أن أدعمها، تمامًا كما فعلت منذ أول يوم التقيتها فيه، عليّ أن أسمح لقلبي أن يتمزق في صمت، سأساعدها أن تتخذ قرارًا تم حسمه منذ ثلاثمائة عام و بقي فقط نقله لخانة التنفيذ..

لقد انتهى الأمر، قرار مشترك أخذته و "يوسف"، غدًا سأرحل، سأعود لزمني، غدًا سيتلاشى كل ما أحببته يومًا، سأبيت الليلة محتضنة "يوسف" و "فرح" ، أستنشق رائحتهما، أحتضن ملامحهما بعينيّ، أن تعلم أن ذلك هو الوداع، هو الفراق الأخير، تحاول أن تتزود بما يكفي من الأحبة، لكن أتعلم ؟ لا شيء أبدًا يكفي، مهما نلت، ستبقى راغبًا في المزيد، ألا لعنة الله على الفراق، أشتاقهما من قبل أن أتركهما، فما يكون حالي بعد الآن، رحماك ربي بحالي، أشعر بألم يعتصر قلبي كلما فكرت أني مفارقتهما، أني مقدمة على محوهما من خط الزمن، يا ويلي، لا ... لن أستطيع، لن أستطيع، لم لا أكون أنانية ؟، "دورثي" حظت بفرصتها في عالم آخر، زمن آخر موازٍ، هي لم تهتم لحالي، و إن رأتني أُحرق حية أمامها لم يكن ليهتز لها طرف ... !، لمَ أهتم أنا، لمَ؟ ربما لأنني أنا السبب ؟، لو لم أبدل، أو لو عدت لحاضري بدلًا من المستقبل لم تكن هي لتعاني، لكن لمَ كُتب عليّ أن أكون أنا دومًا من تعاني ؟، لمَ عليّ أن أكون أنا من تضحي ؟، من ترحل ؟، لمَ عليّ أن أخسر من أحب.. ؟! هذا ليس عدلًا ... !، أتأملهما نائمين بأحضاني، رباه كم أذوب فيهما ، كيف لي أن أتخلى عنهما؟!، لا أضمن أني قادرة على العودة، و إن عدت، ما أدراني إن كنت قادرة على كسب حب "يوسف" مجددًا، كيف أضمن أني سأستعيد "فرح" ؟!

سأعود ... سأعود للحظة التبديل، أنتظر مغادرتي، مغادرة نفسي التي قامت بالتبديل الأول، و أعيد كل شيء كما كان، سأتحرك بسرعة، و أعود للمستقبل، أعود لأستعيد ما أخاطر به الآن ، عليّ أن أقاوم نفسي، أن أجبرها على العودة، لا سبيل آخر، أردت أن يكون آخر ما تقع عليه عينيّ هو "يوسف" و "فرح"، أردت أن أبقي حافز العودة أمام عينيّ، لن أستغرق الكثير، سأستعيدهما .....

بدأت عملية تجميد الوقت، كنت أرتجف، أنتفض فعليًا من الذعر، التردد يتملكني، تلك النظرة في عيني "فرح" ... تلك البراءة، ذلك الحب ... !!، لا لن أستطيع، لن أستطيع، لن أعود، سأوقف الأمر برمته، لا لن أعود .. لا .. لا .. لا، لقد بدأ الانتقال فعليًا، لا .. لا أرغب في فقدانهما ... لاااا أظلمت الدنيا و مادت الأرض تحت قدميّ لقد فقدت تركيزي تمامًا، لن أعلم الآن أي زمن سأكون فيه، لن أعلم إن كنت سأعود يومًا، أو إن كنت سأحظى بحبهما مجددًا ...

تمت

تأليف

فاطمة الزهراء بدوي